محاسبة النفس طريق النجاة

الحمد لله ربّ العالمين، سبحانه لا مانع لِما وَهَب، ولا مُعْطي لما سَلَب ، وأشهدُ أن لا إله إلّا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ سيّدنا محمدًا عبدالله ورسوله اللهمّ صلّ وسلّم وبارك عليه وعلي آله وأصحابه إلي يوم الدين .

ثمّ أمّا بعد :

أيُّها المسلمون: ما أسْعدّ الإنسانَ حينما يوفَّق لمحاسبة نفسه، والوقوف على زلاته وغفلاته!، فمحاسبة النفس ومراجعتها أمرٌ ضروريّ لكل عاقلٍ، لعلّ النفس البشرية تنتبهُ من غفلتها، وتستفيق من رقدتها ، وتقومُ من سُباتها ، وترجعُ عن غيّها وضلالها !

ولكلّ شيءٍ معنًي ومفهوم ، فما معني محاسبة النفس ؟

المحاسبة معناها : " أنْ يتصفّحَ الإنسانُ في ليله ما صدَرَ منه في نهاره، فإنْ كان محمودًا أمضاه وأتْبعه بما شاكلَهُ وضاهاه، وإنْ كان مذمومًا استدركهُ ما أمْكن، وانتهي عن فعله في المستقبل .

ولو نظرنا إلي هذا الجانب؛ نجد أنّه أمرٌ واجبٌ على كلّ مسلم، فهو أمْرُ الله تعالي في قرآنه، يقول جلّ جلالُه: **(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ)**[الحشر : 18]، وروَى الترمذيّ في جامعه عن شدّادِ بنِ أوْسٍ – رضي اللهُ عنه ، عن النبيّ صلّي اللهُ عليه وسلم قال: **" الكيّس مَنْ دان نفسه وعِل لما بعد الموت ، والعاجز من أتْبع نفسَهُ هواها وتمَنّي على الله الأماني "**، ومعنى دان نفسَهُ أيْ: حاسبها نفسه في الدنيا قبل أنْ يُحاسب قبل القيامة، فما أشد خسارة قومٍ غرتهم الدنيا، واستمروا في غفلتهم، حتى جاءهم الموتُ، فاستيقظوا من غفلتهم في وقت لا ينفع فيه الندم أو العمل.

ومحاسبة النفس وصيّةُ السّلف الصالح رضوانُ الله عليهم، فقد روَى أحمدُ في كتاب الزهد: أنّ سيّدَنا عمرَ بن الخطاب رضي الله عنه قال **" حاسبوا أنفسَكم قبل أنْ تُحاسَبوا، وزنوا أنفسَكم قبل أنْ توزنوا، فإنّ ما يُهوّن عليكم حسابَكم غدًا أنْ تُحاسبوا أنفسكم اليوم، وتزيّنوا للعرْض الأكبر يوم تُعْرضون لا تخفي منكم خافية"** .

وفي شُعب الإيمان للبيهقيّ عن سيّدنا عمر - رضي الله عنه أنه كتب لبعض عُمّاله " حاسِب نفسك في الرّخاء قبل حساب الشّدّة ، فإن مَن حاسَب نفسَهُ في الرخاء قبل حساب الشّدّة؛ عاد مرجعُهُ إلى الرضا والغِبْطة، ومَنْ ألْهتْهُ حياتُهُ وأسَرَهُ هواه؛ عاد مرجِعُهُ إلي النّدامة والحسرة".

أيّها المسلمون : ذكَرَ الإمامُ ابنُ أبي الدنيا في كتابه " محاسبة النفس " ؛ أنّ الحَسَن البصري أُثِر عنه قوله: " **إنّ المؤمن قوّامٌ على نفسه يحاسبها لله، وإنّما خفّ الحسابُ يوم القيامة علي قومٍ حاسبوا أنفسَهُم في الدنيا، وشَقّ الحسابُ علي قوم أخذوا هذا الأمر علي غيْر محاسبة**" ، والمُسْلمُ منا لا يزالُ بخير ما كان له واعظٌ من نفسه، وكانت المحاسبةُ من همّته.

والموفّق في حياته هو المسلمُ الذي يقفُ مع نفسه دائمًا يُحاسبها أشدّ من حساب الشريك، حتى يعلم من أين مطعمه ومشربه وملبسه أمن حلال ذلك أم من حرام ؟ فالمؤمن الحق أشدّ محاسبة لنفسه من سلطانٍ عاصٍ وشريكٍ شحيح ، وطبيعته في هذه الحياة أنه " يُراقبُ ربّه ، ويُحاسِبُ نفسَه ، ويتزوّدُ لمعاده" .

أيها المسلمون: وهنا سؤال: كيف يُحاسِبُ الإنسانُ نفسَه ؟ قال أهلُ العلم : ومحاسبة النفس تكون:

1- قبل العمل، بأن يُفكّر الإنسان في هذا العمل الذي يريده... فإن كان فيما يُرضي ربه سبحانه مضَي فيه ، وإنْ كان مما يُسْخِطُ عليه ربَّه تركه بلا تردد أو تفكير.
2- ومحاسبةٌ تكون بعد العمل ، بأن يحاسبُ نفسه على طاعة قصّر فيها فيعود إلي ما كان عليه قبل التقصير بعزم وحرص، أو أمر منهيّ عنه في حق الله قد ارتكبه فيتدارك ذلك بالتوبة والاستغفار، وإن كان في حق العباد ؛ تداركه بإبراء ذمته أو بالعفو والصفح .

ولو عاش المسلم على هذا الحال عاش في حياته موفّقا راشدا سعيدا ، وبعد مماته يسعد ويغْنم بجوار ربه سبحانه في جنة عرضها السموات والأرض : **(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ)** [ق:37] ، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له .

أيها المسلمون : من خطورة التهاون في محاسبة النفس ؛ أنّ المسلمَ الذي يفرّط في الوقوف مع نفسه بالمحاسبة ربّما يُضيّعُ دينَهُ وهو لا يَدْري بسبب إهمال هذا الجانب ، يقول تعالي " **(ولا تُطعْ مَن أغفلْنا قلبَهُ عن ذكرنا واتّبع هواه وكان أمرُهُ فُرُطا)** [الكهف:28]، في هذه الآية يقولُ المحدّثُ المفسّر قتادة السّدوسي – رحمه الله " أضاع أكبر الضّيْعَة : أضاع نفسه، وعسى مع ذلك تجدُه مضيّعًا لدينه ! " نسأل الله السلامة والعافية " .

يقول مالِكُ بنُ دينار – رحمه الله **" رحم الله عبدًا قال لنفسه النفيسة: ألستِ صاحبةَ كذا ؟ ألستِ فاعلةَ كذا ؟ فألجمها بلجام التقوي ثمّ ألزمها طاعةَ الله فكان لها قائدَا !"** .

فالعاقل الرشيد الذي يقسّم وقته بين طاعة ربه ومحاسبة نفسه، والتسامر مع من يُحب، ثم بعد ذلك يُخَلّي بين نفسه وبين لذاتها ما دامت في مرضاة الله .

نسأل الله تعالي أن يوفقنا لمَراضيه، وأن يجنّبنا مناهيه، وأن يجعل مستقبل حياتنا خيرًا من ماضيه ، والحمدُ لله ربّ العالمين .

وكتبه فضيلة الشيخ : رمضان شحاتة محمود محمد – مبعوث وزارة الأوقاف المصرية بالبرازيل .